

مساهمة الدكتور يحيى بوعزيز في التعريف بالتراث المعماري قراءة في كتاب: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب.

بلحاج طرشاوي،
جامعة أبي بكر بلقايد ، تلمسان

يمثل التراث المعماري أحد أهم الوثائق التاريخية التي يمكن للمؤرخ أن يستفيد منها عند دراسته للظاهرة التاريخية، وهو من أهم الوثائق التي يمكن من خلالها التعرف على تاريخ الجزائر على مر العصور، ويمكننا من خلال دراسة هذه المعالم استكشاف أغوار الكثير من الحوادث التاريخية، والخروج بنتائج هامة. ولقد ظلت دراسة هذه المعالم حكرًا على المستشرقين الفرنسيين ردحا من الزمن قبل أن تظهر ثلة من الأثريين والمؤرخين الجزائريين، ساهموا مساهمة بالغة في التعريف بتراثنا الحضاري.

ومن بين الأثريين البارزين نذكر الأستاذ المرحوم رشيد بورويبة، فقد قام بالنتقيب على الكثير من الآثار كما ألف العديد من الكتب، ولا ينكر جهده في هذا المجال، وسار على خطاه آثريون ومؤرخون جزائريون من الجيل الجديد وغيره مما لا يسع المجال لذكرهم.

ويدخل الأستاذ يحيى بوعزيز في زمرة هؤلاء الثلة الذين أثروا المنظومة المعمارية بكتاباتهم، وساهموا في التعريف بها كل من موقعه، وتخصصه. ولا أزعج في هذا المجال أنّ المرحوم كان أثريا بارزا، ولكنني أريد أن أقول أنه لا يجب علينا أن نتكرر لجهود علمائنا وكتابنا وباحثينا فما بالكم إن تعلق الأمر بالأستاذ يحيى بوعزيز، وهو العلم الذي يهتدي به الناس.

ولقد ألقى الأستاذ بطيفه على التراث المعماري الجزائري، من خلال كتاباته المختلفة، وكان لبساطة أسلوبه وسهولة ألفاظه وابتعاده عن المصطلحات الفنية الدور الكبير في تقريب المعلومة من القارئ الذي لا يملك اطلاعا واسعا على علم الآثار.

لقد حاول مؤرخنا من خلال أعماله ، أن يعطي الجزائر المكانة الحضارية التي تستحقها ، وهو يرى أن الجانب الحضاري للجزائر لا يزال مجهولا ، والسبب في ذلك أن الجزائر قد بليت منذ فجر تاريخها بموجات الغزو الفكري والثقافي ، فشغل الناس بالجهاد ، فغطت بطولاتهم مساهماتهم في مجال الحضارة والفكر. (بوعزيز، ي. 2007: 6).

ولعل موقع الجزائر في نظره هو المفتاح الذي يساعدنا في فهم الدور الحضاري الذي ساهمت به في مجال الحضارة والفكر. فالجزائر تحتل موقعا هاما أهلها للقيام بأدوار أساسية على امتداد تاريخها ، فهي همزة الوصل بين المشرق والمغرب. (بوعزيز، ي. 2007: 7).

و حين نقرأ ما كتبه في هذا المجال ، فإننا نلاحظ أنه لم يكتف بوصف المعالم ، ونقل المعلومات التاريخية ، بل إننا نجده يقف أمامها وقفة الباحث المتفحص والناقد المتمرس ، ونلمس هذا من قوله ، في سياق الحديث عن أهمية البحث في هذا المجال: "...و الوصول عبره - طرق البحث - إلى مناطق تلك الأمجاد الفكرية والحضارية وتقويمها وو وضعها في إطارها الصحيح..". (بوعزيز، ي. 2007: 7).

وهو حين يتحدث مثلا عن إنشاء مدينة تلمسان ، ويذكر الروايات التاريخية ، فإنه يقف عندها وينقدها نقدا علميا مؤسسا ، ويخلص إلى القول: "إنما ذلك من قبيل التشيع الذي جبل عليه الناس في تقديس أوطانهم وبلدانهم..". (بوعزيز، ي. 2007: 11).

تاهرت:

وقد أورد يحيى بوعزيز جملة من الآراء التي أوردها المؤرخون والرحالة في أصل إنشاء المدينة ، من أمثال اليعقوبي والشريف السبتي والإدرسي وابن خلدون وابن حوقل وياقوت الحموي... وغيرهم مما يدل على سعة اطلاعه ، وإلمامه بما يرد في المصادر التاريخية والجغرافية. (بوعزيز، ي. 2007: 101 - 107).

القلمة:

أسسها حماد بن بلكين بن زيري الصنهاجي في جبال عياض بالحضنة عام 1007م/398هـ ، وتحولت بسرعة إلى مركز للعلم والثقافة والعمران. (بوعزيز، ي. 2007: 9).

أقاديير :

وقرية أقاديير أسسها بنو يفرن الزناتيون في عصور قديمة، وقد أورد الأستاذ يحيى بوعزيز الروايات المختلفة التي ذكرت حول تأسيس المدينة، مرجحا ما ذكره ابن خلدون، في أصل تأسيسها وقد أنكر تلك الأساطير التي تزعم أن الخضر عليه السلام قد وصل إلى تلمسان، كما أنكر أن يكون الرومان هم من أسس هذه المدينة، وهو الرأي الذي يتداوله المستشرقون الفرنسيون، ويرجع دوافع هذا الرأي إلى خدمة الاستعمار. (بوعزيز، ي. 2007: 11).

وذكر بعض روايات المؤرخين أن ابن الرقيق قد ذكر تلمسان مرتين الأولى عند حديثه عن حملة أبي المهاجر دينار والثانية عند حديثه عن نشاط إبراهيم ابن الأغلب، وخروجه لملاقاة الخوارج. (بوعزيز، ي. 1999: 211).

تأقرارت:

وهي من تأسيس المرابطين، وقد فصل بين المدينتين بسور، أزيل لاحقا وأدمجت المدينتين. (بوعزيز، ي. 2007: 6). وقد كان سور المدينة مبنيا بالطابية، شأنه في ذلك شأن كل الأسوار التي بناها المرابطون في المغرب الإسلامي. وقد هدمه الموحدون بعد قضائهم على "تاشفين بن علي المرابطي". (الطمار، م. 1984: 44) ثم عمروا تلمسان بعد أن خربتها جيوشهم.

آثار تلمسان:

قلعة المشور: وهو يصفها بقوله: "قلعة المشور التي قاومت صروف الدهر قرونا، وتتوسط المدينة كالطود الشامخ، أنشأها الموحدون بعد سيطرتهم على المدينة في القرن 12م، وبداخلها دور للسكنى ومسجد جامع جميل...". (بوعزيز، ي. 2007: 68).

المسجد الأعظم:

وقد أمر ببنائه الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين. (بوعزيز، ي. 2007: 68)، وذلك سنة 1070م، ثم رممه ابنه علي بن يوسف بن تاشفين سنة 530هـ، 1135م. (الطمار، م. 1984: 44). أما مئذنة المسجد فقد أمر ببنائها السلطان يغمراسن ابن زيان.

مسجد أبي الحسن بن يـخلف التتسي:

وهو اليوم متحف للفن الإسلامي للمدينة وللمنطقة ، شيده أبو عثمان يغمرا سن بن زيان سنة 696هـ ، وهو منسوب للعالم أبي الحسن التتسي ، الذي كان معاصرا لأبي سعيد عثمان. (شاوش، ر. 1995 : 226).

مسجد سيدي الحلوي: أبو عبد الله الشوزي قاضي إشبيلية ، شيده السلطان

المريني أبو عنان فارس سنة 754هـ.

مسجد ومدرسة الشيخ أبي مدين: وقد شيد المدرسة والمسجد السلطان

المريني أبو الحسن سنة 740هـ ، بقرية العباد. (حاجيات، ع. 1984 : 65)

خرائب المنصورة:

وقد تحدث يحيى بوعزيز مطولا عن مدينة المنصورة ، وأولاهها من الاهتمام ما لم تحظ به المعالم الأخرى ، ولعل الأمر مرده إلى الظروف التي أنشئت فيها المدينة ، والعلاقة المتوترة بين الجارين الزياني و المريني. (بوعزيز، ي. 2007 : 68)

عنابة:

كانت عنابة تدعى هيبو ريجيوس ونواتها تقع على بعد كيلومترين من عنابة الحالية ، ولقد استقر بها الفينيقيون ، منذ أواخر القرن 9 ق م ، ثم سكنها الرومان. (بوعزيز، ي. 2007 : 6).

مدينة وهران:

وعند الحديث عن مدينة وهران ، ذكر المعالم الأثرية التي كانت قائمة في الأيام الخوالي ، وما طرأ عليها من تبديل وتغيير بفعل الإنسان أو صروف الدهر.

أحياء وهران:

- حي القصبة القديم: ويقع في الضفة الغربية لوادي الرحي بأبراجه وقلاعته ، ومساكنه العتيقة.
- حي بلانسا الإسباني: وهو أيضا يقع في الضفة الغربية للوادي.
- وفي الضفة الوادي الشرقية يقع برج الأمحال ، وبرج الصبايحية ، وبرج رأس العين ، وقرية القلايحية ، ودرب اليهود ، ومدينة المنجلين التي أسست مكانها مدينة السود أو المدينة الجديدة. في 20 جانفي 1845م.

الأبراج:

أما الأبراج والحصون التي كانت قائمة في وهران فكثيرة، ذكر منها، برج اليهودي، وبرج القديسة تيريز، وبرج الجبل، وبرج حسن... (بوعزيز، ي. 2007: 99).

أسوار المدينة:

كانت مدينة وهران تحيط بها الأسوار من كل الجهات تقريبا، وكانت الأسوار تتخللها أبواب كثيرة، منها باب السوق، باب الجيارة وباب المرسى... وبلغ عدد أبوابها سبعة أبواب.

الحصون والقلاع:

وهي متعددة أيضا يعود بعضها إلى الفترة المرينية، وأغلبها يعود إلى الفترة الإسبانية، وقد أحصى أكثر من ثلاثين حصنا. (بوعزيز، ي. 2007: 102).

المساجد:

اشتملت مدينة وهران على الكثير من المساجد، حطم الغزاة معظمها، وحول الباقي إلى كنائس، ومن المساجد التي عرفنا بها الأستاذ يحيى بوعزيز نذكر:

جامع البيطار:

وقد أسس سنة 747هـ، وحول إلى كنيسة سنة 1509م، وعندما فتح بوشلاغم وهران سنة 1708م، هدم الكنيسة، ثم بنى اليهود مكانه بيعة لهم، خربها محمد الكبير سنة 1791م. ولما دخل الفرنسيون وهران أقاموا مكانه كنيسة القديس لويس سنة 1831م. ويتأسف الأستاذ لما آلت إليه وضعية البناء بعد الاستقلال: "وهي حاليا عبارة عن هيكل وجدران، ويا حبذا لو تعاد إلى أصلها مسجدا كما أسست لأول مرة على تقوى من الله ورضوان لتؤدي دورها الإسلامي". (بوعزيز، ي. 2007: 111).

مسجد البرانية:

ويسمى أيضا مسجد بني عامر، أسسه بوشلاغم سنة 1708م، للتجار الأجانب، وهدمه الإسبان سنة 1732م، وأقاموا مكانه برج القورد (gourd). ثم هدمه الباي عثمان سنة 1801م، ثم أعاد تأسيس المسجد، ليهدمه الفرنسيون إلى كنيسة قديس أندري.

ومن المساجد التي أسسها العثمانيون في وهران نذكر:

مسجد الباشا:

وأسسه محمد الكبير سنة 1796م بأمر باشا الجزائر الداي بابا حسن، تخليداً لذكرى فتح وهران الأكبر. (بوعزيز، ي. 2007: 112)، كما تشير إلى ذلك اللوحة التأسيسية التي تتقدم مدخل الجامع ونطالع فيها النص التالي: "بسم الله الرحمان الرحيم مسجد الباشا أسس بأمر من سيدي الحسن باشا 1796م"، وقد تم إنشاؤه بعد الفتح الثاني لوهران سنة 1207هـ/1792م، وهو مسجد جامع كما تدل على ذلك اللوحة التأسيسية المحفوظة بمتحف وهران، وهي لوحة تذكارية منقوشة على الحجر.

يقع جامع الباشا في شمال المدينة القديمة على الضفة اليمنى الشرقية لوادي الرحي الذي يعرف اليوم بوادي "رأس العين" في سفح شديد الانحدار جنوب غرب برج الأمحال أو البرج الأحمر أو البرج الجديد قبالة حي القصبة على الضفة اليسرى الغربية للوادي، ويجاوره على اليمين الجنوبي حي درب اليهود الذي بني في نفس الفترة تقريباً على أراضي قدمها الباي "محمد بن عثمان الكبير" لليهود الذين هاجروا إلى هذه المدينة قادمين من جهات مختلفة من البلاد. (Chiali, h.2002: 55). يعتبر مدخل جامع الباشا من أجمل مداخل المساجد في الجزائر، فهو عبارة عن مدخل تذكاري يؤدي إلى غرفة مربعة، والمدخل مغطى بقبة مئمنة الأضلاع، ذات زخارف هندسية بديعة، تزينها آيات قرآنية في أعلى جهاتها.

مسجد سيدي الهواري:

أسسه الباي عثمان بن محمد الكبير سنة 1799م، ليحولهُ الفرنسيون إلى مستشفى عسكري.

ولعل القارئ يتفاجأ وهو يقرأ الملاحظات التي أبدتها الأستاذة حول عملية الترميم التي شرعت فيها السلطة الجزائرية للمسجد، ويدرك أن الرجل كان له اطلاع واسع، شمل أهم فروع علم الآثار وهو الترميم، فقد انتقد الطريقة التي تتم بها عملية الترميم، وهي ملاحظات علمية دقيقة ونحن ننقل هنا ملاحظاته فهي تبين تمكنه وطول باعة في علوم كثيرة: "...ولكم الأسلوب الذي تتبعه في الإصلاح والترميم غير سليم، فالمنارة يجب أن تحرر من كل المباني التي أنشئت حولها لتبرز

وتظهر، وأماكن الوضوء التي استحدثت ليس ذلك مكانها، لأنها ضيق المسجد كثيرا، ويجب نقلها وإبعادها عن قاعة الصلاة، حتى تتسع للصلاة، ولا يتسخ المسجد بالقاذورات، ونقترح جعل حمام بوشلاغم في شرقه بيتا للوضوء..." (بوعزيز، ي. 2007، 113، 112).

جامع عين البيضاء بمعسكر:

خلال إقامة الباي محمد بن عثمان الكبير بمدينة معسكر اهتم بتعميرها ومن ضمن منشآته بها مسجد عين البيضاء.

يقع الجامع في وسط مدينة معسكر على بعد 300م من السور الشرقي على أرض مائلة إلى الشرق كذلك، وقد تم الفراغ من بنائه في أول شهر ذي القعدة عام 1195هـ الموافق ل 19 أكتوبر 1781م، وأشرف على بنائه المعلم أحمد بن محمد ابن صاري التلمساني، (بوعزيز، ي. 2007: 215).

وهذا ما تدل عليه الكتابتين التذكاريتين اللتان تحيطان بالمحراب، وقد كتبتا على لوح من الجص، وهما كالآتي:
"الخط المغربي"

النص: بسم الله الرحمن الرحيم - صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

- الحمد لله

- أما بعد أمر بتشيد هذا الجامع المبارك خليفة السلطان السيد محمد باي ابن عثمان

- أيده الله آمين.

- انتهى بحمد الله على يد المعلم أحمد بن محمد بن حج حساين بن صاري التلمساني رحمه الله في أول يوم ذي القعدة عام خمسة وستين مائة وألف. (Leclerc, ch. 1859:42).

وقد حول الاحتلال الفرنسي الجامع إلى مخزن للعتاد العسكري، وبقي كذلك حتى سنة 1905م، وفي رواية أنه قد أعيد فتحه مسجدا للمسلمين سنة 1910م، (بن بلة، خ. 2008: 84).

وبيت الصلاة ذات مخطط مربع الشكل يبلغ طول ضلعه 16.20م x 16.17م، وهي مغطاة بقبة كبيرة تشغل كل القاعة ترتكز على ثمانية أعمدة ثنائية، يحيط

بالقاعة رواق مغطى هو الآخر بقباب صغيرة في الجهات الأربع، أما المساحات المتبقية فقد غطيت بأقبية متقاطعة، يبلغ طول الرواق الجنوبي 16.17م وعرضه 2.81م، أما الرواق الشرقي والغربي طوله 6.20م وعرضه 2.85م.

وندخل إلى بيت الصلاة من خلال مدخل واحد يقع على اليمين، يتوسط جدار القبلة محراب مصلع تتقدمه قبة زينت بزخارف جصية قوامها زخرفة التوريق، والمحراب زخرف بنقوش جميلة قوامها آيات قرآنية كريمة منها قوله تعالى: " في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة". (بوعزيز، ي. 2007: 216).

المراجع:

- بوعزيز، يحيى. موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب.
- بوعزيز، يحيى. (2004). المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، منشورات ANEP.
- بوعزيز، يحيى. (2003). مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط2، وهران.
- بن بلة، خيرة. المنشآت الدينية خلال العهد العثماني (رسالة ماجستير غير منشورة).
- الطمار، محمد. (2006). تلمسان عبر العصور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- حاجيات، عبد الحميد. (1984). أبو حمو موسى الثاني، حياته وآثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- Leclerc, ch.: " les inscriptions de Mascara" I/4 revue Africaine, N° 108, 42-46.
- CHAILA, Houari.(2002). Oran histoire d'une ville, Oran, EDIR.-